شعراء مصر القديمة

أحمد بهجت

حين ظهر كتاب العالم الالماني ماكس بيير عن الادب المصري القديم ، زحفت الدهشة على كثير من الاوساط الادبية في العالم . وتساءلت هذه الاوساط : ايمكن ان يكون لمصر القديمة ادب كادب اليونان واللاتين ؟ وكان التساؤل يجد عذره في الصفحة البيضاء التي وجد العالم الادب عليها قبل عصر الاغريق . وتتالت الكشوف الاثرية ، مجتذبة بسحر لا يقاوم كثيرا من العلماء الذين اثبتوا ان مصر القديمة قد عرفت ادبا لا يقتصر على النقوش الدينية وانما يتعدى ذلك الى مؤلفات لها قيمتها الادبية، والى مسرح له حواره ومشاهده ورموزه، وان كان الزمن قد اهال كثيرا من التراب على رموزه .

كان الشاعر يحتل في مصر الفرعونية المركز الاول بين الكتّاب . وكانت الكتابة تدفع صاحبها لارقى المناصب حتى تضعه بعد الفرعون ووزرائه مباشرة . وفي التعاليم التي تركها خيتي بن دواوف لابنه بيبي يقول : «الرجل الذي يعمل على حسب عقل غيره لا ينجح؛ ليتني اجعلك تحب الكتب اكثر من والدتك ، وليت في مقدوري ان اظهر جمالها امام وجهك . انها اعظم من اي حرفة . تأمل، فانه لا توجد حرفة من غير رئيس لها الا صناعة الكاتب : فهو رئيس نفسه . ان صاحبها هو الذي يصدر الاوامر .»

ويبدو من العبارة الاخيرة ان الكاتب كان يصل لمرتبة من القداسة تتيح اعتبار مخالفة نصائحه واحكامه جريمة يعاقب عليها الفرعون .

وقد لمع من بين الشعراء المصريين القدامى اسماء حردادف ، وعاش في عهد الملك خوفو ، وجاء ذكره في قصة خوفو والسحرة ، وورد اسم نفري وان لم يصل الينا شعره، كما وصلنا اسم الشاعر الحكيم ابور وهو شاعر صفع عصره بشكاة رائعة كانت تنطوي على ما يشبه النبؤة بانهيار محقق . ولمع كذلك اسم امنموبي الذي لاحظ العلماء بالدراسات

المقارنةان تعاليمه التي كتبها بالشعر تكاد تكون هي الاصل الموحي لسفر الامثال الذي ورد في التوراة . ولعل تعاليم امنموبي هي قطعة الشعر التي وصلتنا كلها سليمة : حصل عليها السير ولس بدج سنة ١٨٨٨ على ورقة بردية (محفوظة الآن في المتحف البريطاني)، وكانت الورقة تضم ثلاثين فصلا من الشعر ، كتبها حكيم يدعى امنموبي عاش وفق ارجح الآراء بين الأسرة الحادية والعشرين والاسرة الثانية والعشرين . وكانت لتعاليمه شهرة عظيمة حتى انها درست في مدارس الدولة الحديثة بعد ذلك . وبنظرة سريعة على الاثر الفني الذي تركه امنموبي نقطع بان الشاعر كان يحمل رسالة خاصة للعالم . لقد ترك النصائح العادية ، كاحترام الرجل لرؤسائه وسلوكه في البيت ،وراء ظهره ، وراح يضع دستوراً واضحا للضمير الفردي ، ويرسم صورة مثالية لما يجب ان يكون عليه الانسان :

« احذرْ ان تسلب فقيرا بائسا
وان تكون شجاعا امام رجل مهيض الجناح
ولا تمدّنّ يدك لتمس رجلا مسنّا بسوء
ولا تشتبكنّ في جدال مع احمق
ونم ليلة قبل التكلم

لا تمنعنّ اناسا من عبور النهر
عندما يكونُ في قاربك مكان
لا تصنعنّ لنفسك معبرا في النهر
ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع اجره
خذ الاجر من الرجل صاحب الثروة
ورحّب بمن لا يملك شيئا . »

ولسوف نلاحظ ان الشاعر يهتم كثيراً بالرحمة والرزانة . ولسوف نرى الشاعر يذكّر ابنه دائما بأن المثل الاعلى في الحياة هو الرزانة والصمت . ويكشف لنا الشعر ان فكرة وجود الله في نظر امنموبي كانت هي المستوى الذي يضعه امام الناس لفهم الحياة ، فالله هو الذي يجب ان يكون مديراً لسكان سفينة الحياة ، ويجب على الانسان ألا يخاف غيره ؛ والله يبارك العمل ويحب الخير ، وبعد الموت يكون الانسان في يدي الله :

« ما اسعد الذي قد وصل الى الغرب وهو آمن مطمئن في يدي الله . »

وكان امنموبي هو الشاعر الذي حدد دور الكاتب في تحذيره الذي طلب فيه ألا يساء استعمال فن الكتابة :

« اعملْ خيرا حتى تعرف من انا
ولا تغمسنّ قلما في المداد لتفعل ضررا
فان منقار ايبيس هو اصبع الكاتب
واحذرْ ازعاجه . »

وقد لاحظ درّاس العهد القديم ، مثل ادولف ارمن و زيته وهيوبرت غريم وهوغو غرسمان ، ان هناك وجوه شبه كبيرة بين شعر امنموبي والحكم التي اوردها سفر الامثال في التوراة ، مما ادى الى نظريتين تقول اولاهما ان هذه الامثال العبرانية قد نقلت عن تعاليم امنموبي وتقول الثانية ان تعاليم امنموبي والامثال العبرانية تعود كلها لاصل واحد قديم . وسواء صدقت النظرية الاولى او الثانية فالذي لا شك فيه ان امنموبي كان شاعرا تحمل كلماته رسالة اخلاقية ويتمركز شعره حول انسان مثالي رزين لا يظلم احدا ولا يسيء لاحد وانما يفعل الخير دائما .

يعكس شعر امنموبي صورة رائعة لعصره المستقر الهادىء ، وهناك شعراء عاشوا في عصور مضطربة فعكس فنهم صورا دقيقة لعصورهم . ولعل اقوى مثال على ذلك شاعر يدعى ابور . وهو اول شاعر من مصر القديمة يجعل من شعره هذا الضمير المبكت لعصره ويوظف كلماته لخدمة القضية الاجتماعية .

في متحف ليدن ورقة بردية تحمل رقم ٣٤٤ . ان اول الورقة ضاع وهشم آخرها والفجوات تحتلّ وسطها . هذه الورقة تعد من اهم الوثائق التي تدمغ العصر الاقطاعي الذي تميز بانحطاط البلاد واصابتها بالدمار . ان الشاعر يخاطب ملكا ، لم يحفظ لنا التاريخ اسمه ؛ وهو في الحقيقة لا يخاطب الملك وانما يقوم بالقاء اتهام طويل مفعم بالغضب على

حالة عصره امام الملك :

« حقا لقد مات السرور ولم يعد يحتفل به بعد ولا يوجد في الارض الا الانين
الممزوج بالعويل
حقا لقد صارت النساء عاقرات وانقطع الحمل واصبح الاله خنوم لايسوس
الناس بسبب حالة الارض المضطربة
حقا ان القلب لثائر والوباء قد انتشر في كل الارض والدم صار في كل مكان
ولفائف المومیات تتكلم وان لم يقترب الانسان منها
حقا لقد دفن رجال عديدون في النهر فأصبح النهر قبرا وصار المكان
الطاهر مجرى
حقا ان النيل في وقت الفيضان ومع ذلك لا يحرث احد من اجله
حقا ان قلوب الماشية تبكي والقطعان تندب حالة البلاد . »

ان حالة مصر السيئة التي يصورها الشاعر ابور ، ووجهة النظر التي يري من خلالها الاشياء ، ولغة الوثيقة التي يدين بها عصره ، لا تدع مجالا للشك في تحديد عصر الشاعر . فهذه الحالة التي يحكيها جاءت على اثر سقوط الدولة القديمة ، اي في نهاية عصر الاهرام وانحلال البلاد وتحكم الاقطاع . وواضح من كلمات الشاعر انه يصف مرضا لا يعرفه غير مجتمع اقطاعي تنهدر فيه المقدسات ولا يمثل فيه العمل قيمة ولا يجد الذين يعملون ما يأكلونه على حين يتخم من لا يعمل . يقول ابور للملك :

« انظر ان من حصد المحصول لا يعرف عنه شيئاً ومن لا يحرث لنفسه
يملأ مخزنه
انظر ان السيدات الشريفات قد اصبحن جائعات ولكن القصابين متخمون
من الشبع
انظر ان عظماء الارض اصبحوا ولا احد يخبرهم عن حال عامة الشعب وكل
شيء آيل للخراب . »

ولسوف نحس ونحن نمضي مع الشاعر ابور انه يذكر للملك ناسا لا يزالون يسترون وجوههم خوفا من الغد . ولقد كان من نتائج تدهور البلاد وتمزيق اوصالها في العهد الاقطاعي ان استسلمت الاخلاق والعقائد الى نوع من التحلل الذي يشبه ما يصيب المومیات

عند تعرضها للشمس . ومع موجة التململ التي اغرقت البلاد عرف التشاؤم طريقه الى القلوب واحتلها مع اليأس . وولد الشعوربعبث الحياة ،وطغت على سطح النفس الانسانية فكرة الانتحار كحل ومخلص من حياة تغيسة . ولعل اول قطعـــة من الشعر تعكس هذا الشعور بعبث الحياة والتفكير في الانتحار توجد الآن بمتحف برلين علي ورقة من اوراق البردي التي تعود لعصر الاقطاع في مصر القديمة . ان ورقة البردي بلا اسم ، تهشم اسمها وان كان الاثري العربي الدكتور سليم حسن يسميها « شجار بين انسان سئم الحيـــاة وبين روحه » . هذه القصيدة كتبها شاعر لطيف الروح لم يصل الينا اسمه ، شاعر كانت الحياة حوله تغيم بضباب كثيف خانق دفعه الى التفكير في الانتحار لولا ان عصته روحه لخوفها الا تجد طعاما في القبر بعد الموت . يقول الشاعر القديم الذي احس بعبث الحياة واحس بالنفي وتبلور احساسه حول اسمه الذي يمثل ذاته :

« انظرْ ان اسمي ممقوت
اكثر من رائحة اللحم النتن في ايام الصيف عندما تكون السماء حارة
انظر ان اسمي ممقوت
اكثر من زوجة عندما تقال عنها الاكاذيب لزوجها
لمن اتكلم اليوم ؟ الاخوة شرّ واصدقاء اليوم ليسوا اصدقاء حب
لمن اتكلم اليوم ؟ القلوب قلوب لصوص وكل رجل يغتصب ما عند جاره
لمن اتكلم اليوم ؟ فالخطيئة التي تصيب الارض لا حد لها . »

ثم يصل الشاعر الى التفكير في الموت فيقول :

« الموت خلاص سارّ
ان الموت امامي اليوم كرائحة بخور المر وكانسان يقعد تحت الشراع في يوم شديد الريح
ان الموت امامي اليوم كسماء صافية ومثل رجل يصطاد طيورا لايعرفها . »

هذه هي بعض الافكار التي عبر عنها الشعر في مصر القديمـــة . ولم ينس الشعراء ان يعبروا عن اخلد عاطفـــة انسانية وهي عاطفة الحب ، فكان هناك شعر يسيـــل عذوبة ويقطر رقة :

« ان حب اختي على ذلك الشاطىء
وبيني وبينها مجرى ماء
ويربض على شاطىء الرمل تمساح
ولكن حين انزل في الماء
اسير على الفيضان وقلبي جسور على المياه التي اصبحت يابسة تحت قدمي
وان حبها هو الذي يبعث تلك القوة فيّ . »

وقد عرف الشعر المصري القديم هذه الامنيات الغريبة التي يلدهـــا الفراق في قلوب العاشقين :

« أليس في الامكان ان اكون دائمـــا بجوارك ؟ ليتني كنت خادمك حتى لا افارقك لحظة عين ، وليتني غاسل ملابسك حتى انعم بعبيرك وانتشي بأريجك الذكي ، وليتني كنت خاتمك الذي في اصبعك فأكون في موضع لمس يدك وقريبا منك ولو كنت شيئا جامدا لا حياة فيه . »

وسوف نلاحظ ونحن نمرّ على الشعر الغزلي في مصر القديمة ان هذا الشعر كان يوضع احيانا في قالب تمثيلي .ان ورقة برديةمن عهد سيتي الاول تضم حوارا بين عذراء وشاب. يدور الحوار بينهما حول العاطفة التي يكنها كل واحد للآخر . وتعبر الفتاة بشكل حسّيّ عن رغبتها ، افضل مما يعبر الشاب :

العذراء تتكلم :

« اذا احببت ان تلامس فخذيّ فان ثديّ لك
اتريد ان تبتعدّ عني لانك تفكر في الاكل ؟
هل انت رجل شره ؟ هل تريد ان تنصرف لتكسو نفسك ؟
ولكني املك ملاءة . هل تريد ان تنصرف لانك عطشان ؟
خذ اذاً ثديي وارشف ما يفيض منه . ما اجمل اليوم الذي فيه ... »

(بقية الجملة مهشمة) . الشاب يتكلم :

« الاخت حقل فيه ازهار البشنين وصدرهـــا فيه تفاح الحب وحاجبها كاحبولة الطيور المصنوعة من خشب المرو وانا الاوزة التي وقعت في الاحبولة . »

سوف نلاحظ خلال دراستنا لاشعار الحب عند قدماء المصريين انها ازدهرت في الفترات التي غلبت فيها الصحة النفسية على حيـــاة الشعب واستقرت احواله الاجتماعية ، وكان الحب الذي يغنيه الشعراء في معظمه هو الذي يرمي للاتحاد المقدس . لكن الحب في مصر القديمة كان يفسح مكانه في فترات تاريخيـــة لفلسفة اللذة وانتهاب المباهج قبل الموت . ولدينا قصيدة منقوشة على لوحة محفوظة بمتحف ليدن يرجع تاريخها الى سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد . والشاعر يتحدث في قصيدتـــه عن الموت وينصح بالتزود من اللذات قبل الرقاد الاخير :

«اجعلْ من اسباب سرورك ان تسير وراء رغباتك ما دمت حيا ترزق
وضع المرّ على رأسك والبس على جسمك نسيج التيل اللطيف
وانعم بوسائل الترف العجيبة وزد في مباهجك اكثر من ذي قبل
ولا تدع قلبك يذبل
احتفل بيوم السرور ولا تملِ منه
حتي يأتيك يوم النحيب
انظر ليس ثمـــة من يأخذ امتعـــة معه
اجل ولا يعود من ذهبوا الى هناك . »

كان هذا التشاؤم يلقي ظله في الفترات التي تتوسط عهدين تسود كلا منهما مبادىء خلقية غير التي تسود العهد الآخر . فترات ينتصر فيهـــا التفكير على العقيدة ، ولا يعرف الناس غايـــة لوجودهم غير التمتع باللذات . لكن هذه الفترات لم تـــدم كثيراً في مصر القديمة ، فالتفكير المجرد كان يخلي مكانه دائما للدين . ولقد كان الدين في مصر القديمة يهيمن على كل شيء ، وقـــد دفعت خصوبة الروح الدينية المصريـــين الى عبـــادة مصدر الحياة وكل صور الحياة ، فكانت هناك الهـــة من النباتات والحيوانات والطيور . وكان الشعراء ــ كابناءٍ لعصورهم ــ يذكرون هذه الالهة جميعا في شعرهم. لكن البحوث العميقة التي قام بها علماء الآثار تدل على ان فكرة التوحيد قد تغلغلت في التفكير الديني المصري منذ اقدم العهود . وان قطعـــة من الشعر صيغت على شكل انشودة عن الشمس لتدل على ذلك : ويعود تاريخ هذه الانشودة ، المحفوظـــة في المتحف البريطاني ، لعصر امنحوتب الثالث والد امنحوتب الرابع الذي عرفه التاريخ فيما بعد باسم اخناتون :

« انك صانع مصور لاعضائك بنفسك
ومصور دون ان تصـــور
منقطع النظير في صفاته مخترق الابـــدية
انت خالق الكل ومانحهم قوتهم
وانت الذي يرى ما خـــلق
ومضيء في السماء وكائن كالشمس
ويخلق الفصول والشهور
والحرارة عندما يريد والبرد عندما يشاء . »

هذه الفكرة زادت وضوحا في عهد اخناتون بعد ان قاد ثورته الدينية ، وخلّد احد الشعراء فكرة التوحيد في قصيدة يقول فيها عن خلق الانسان :

« انت خالق الجرثومة في المرأة
والذي يذرأ من البذرة اناسا
وجاعل الولد يعيش في بطن امـــه
مهدئا اياه حتى لا يبكي
ومرضعا اياه حتى في الرحم
وانت معطي النفس حتى تحفظ على كل انسان خلقته . »

وفي خلق الحيـــوانات ايضا يقول الشاعر :

« وحينما يصير الفرخ في لحاء البيضة
تغطيه النفس ليحفظ حيا في وسطها
وقد قدرت له ميقاتا في البيضة ليخرج منها
فيمشي على رجليه حينما يخرج منها
وهو يخرج من البيضة في ميقاته . »

هذه نماذج سريعة لشعر قدماء المصريين . وهو كما نرى شعر يمتلىء بالصور ، ويلعب دوره في التعبير عن عصره. ولكن اي وزن يقيده ،وهل له وزن واحد او اوزان كالشعر العربي ، وهل له قيود اخرى غير الوزن ، كالقافية مثلا ؟ الواقع ان الجواب على هـــذه

الاسئلة جميعا لا يمكن ان ينطوي على نظرة علمية . فنحن تائهون في بحار الشعر المصري القديم ، وما وصلنا منه لا يسمح لنا باصدار احكام قاطعة تتناول هذا الموضوع بالتفسير والتحليل . ويرجح العلمـــاء ان الشعر المصري القديم كان يخضع لنوع من الموسيقى التي يخلقها تكرار المقاطع وتناسب معانيها . ولم يكن تكرار المقاطع واتحاد عدد سطورها هو كل ما يميز الشعر المصري القديم . فاحيانا كان الشاعر يلتزم بـــان يبـــدأ اول سطر من شعره بكلمة مشتركة تتكرر في كل بيت . ففي الجدال الذي نشب بين انسان سئم الحياة وبين روحه نجد الشاعر المجهول يبدأ جزءاً من قصيدته بكلمة « أنظر » ويكرر الكلمة في كل بيت جديد . ثم يلجأ بعد ذلك في الجزء الثاني من قصيدته الى عبـــارة جديدة هي « لمن اتكلم اليوم » ويكررها في كل بيت . واحيانا كان الشاعر في مصر القديمة يطرح كل القيود وراء ظهره فيكتب مقاطع شعرية تختلف في الطول وتختلف في عدد الأسطر ولا تتشابه بداياتها ، وكان هذا هو الشعر الحر الذي نقل عنـــه مصريو العصر المسيحي (الاقباط) فكرة تأليف شعر حر خال من القيود الوزنية مثل :

« رجل آخر يذهب الى الخارج
يمكث سنة ثم يعود الى بيتـــه
ولكن ارشليت قد ذهب الى المدرسة
وكم يوما حتى ارى وجهه . »

ومن مميزات الشعر القديم التي انفرد بها ايضا انه كان يسوق المعنى الواحد في صورتين مختلفتين متلاحقتين ، مثل : « القاضي يستيقظ . تحـــوت يجلس . » ومثـــل : « فتكلم اصدقاء الملك . واجابوا امام الهم . »

ومن الظواهر الملموسة في الشعر المصري القديم تداعي المعـــاني واستطراد الافكار . ولعل ابلغ مثال على ذلك هو الشاعر المصري ابور ، فهذا الشاعر الذي تفجر قلبه اسى على بلاده ، راح يرسل الزفرات واحدة بعد الاخرى ، وكانت كل فكرة يعبر عنها تشوقه الى فكرة جديدة ، وتسلمه الفكرة الجديدة الى غيرهـــا . « ان كل شيء مملوء بالحيـــاة حتى الاطفال الصغار . » هكذا يقول ، وعند ذكر الاطفال يثب الى ذهنه انهم يقتلون ويلقى بهم على تلال الصحراء ، فيرسم هذه الصورة ؛ ثم تذكره تلال الصحراء بصورة الموميات التي تنزع من قبورها وتلقى عليها ، فيعالج ذلك دون ان يكون لهذه كله علاقة مباشرة بالموضوع الذي انشأ فيه القصيدة اولا. وهذا يجعلنا نستطيع ان نقول ان الشاعر المصري القديم كان يفكر بالصور ، وكان احيانا كثيرة يستغني بالموسيقى الداخلية عن القيود التي وضعها اجداده ، وهي قيود ما زالت موضع جدال الاحفاد الى اليوم .